فقه الشكوى

الكاتب : عبده قايد الذريبي

التاريخ : 16 سبتمبر 2014 م

المشاهدات : 4319

إذا داهمتْك الأحزانُ والخُطُوب، وكَثُرتْ عليك المعاصي والذنوب، وعزَّ عليك المأمول والمطلوب ـ فانطرح بين يَدَي مولاك، وأظهر له فاقتَك وعجزك، وَاشْكُ إليه حاجتَك: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: 86]، إلى الله، لا إلى أحدٍ سواه!

إِذَا أَرْهَقَتْكَ هُمُومُ الْحَيَـاةِ *** وَمَسَّكَ مِنْهَا عَظِيمُ الضَّـرَرْ
وَذُقْتَ الْأَمَرَّيْنِ حَتَّى بَكَيْـتَ *** وَضَجَّ فُؤَادُكَ حَتَّى انْفَجَـرْ
وَسُدَّتْ بِوَجْهِكَ كُلُّ الدُّرُوبِ *** وَأَوْشَكْتَ تَسْقُطُ بَيْنَ الْحُفَرْ
فَيَمِّمْ إِلَى اللهِ فِي لَهْفَــةٍ *** وَبُثَّ الشَّكَاةَ لِرَبِّ الْبَشَـرْ

فإذا فعلتَ ذلك سَمِع الله شكواك، واستجاب دعاك، كما استجاب لِمَن سبقك من الأنبياء والصحابة والأخيار؛ فهذا أيوب ـ عليه السلام ـ يشكو حاله إلى ربه، فيقول: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 83]؛ فسَمِع الله شكواه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 84].

وهذا يونس ـ عليه السلام ـ ينادي ربه ويُنَاجِيه، ويشكو إليه حاله، فينادي ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87]؛ فسمع الله شكواه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: 88].

وهذا نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يشكو حاله إلى ربه، فيناديه: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى مَن تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟ أم إلى عدوٍّ ملكتَه أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهِك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصَلَح عليه أمر

الدنيا والآخرة من أن تُنْزِل بي غضبَك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك))[1].

وهذا خَبِيب بن عَدِي حينما رفعوه على خشبة الصلب اشتكى حاله إلى ربه، فقال:

لَقَدْ جَمَّعَ الأحزابُ حَوْلِي وأَلَّبُوا *** قَبَائِلَهم واستَجْمَعُوا كلَّ مَجْمَعِ
وَقَدْ جَمَّعُوا أَبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهُم *** وَقُرِّبْتُ مِن جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ
إِلَى اللهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِأي *** وَمَا أَرْصَدَ الْأَحْزَابُ بِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَذَا الْعَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي *** فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ *** يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
لَعَمْرِيَ مَا أَحْفَلْ إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا *** عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ للهِ مَضْجَعِي[2]

وهذه امرأةٌ ضعيفةٌ تشكو زوجها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيسمع الله شكواها، ويحل مشكلتها بآيات تتلى إلى يوم القيامة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: 1] الآيات.

وهذا الربيع بن خثيم يقول في شكواه: \"اللهم أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك، وأستغفر منها وأتوب إليك\"[3].

أُصَعِّدُ أَنْفَاسِي وَأَحْذَرُ عَبْرَتِي *** بِحَيثُ يَرَى ذَاكَ الْإِلَهُ وَيَسْمَعُ
إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ إِنَّمَا *** مَكَانُ الشَّكَايَا لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

والله يحب أن يسمع عبده يشكو إليه، ويَمقُت منه أن يشكوه إلى خلقه، قال ابن القيم: \"بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرع إليه، وهو ـ تعالى ـ يَمقُت مَن يشكوه إلى خلقه، ويحب مَن يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه، فقال: ربِّي يرضى ذل العبد إليه\"[4].

لَبِستُ ثوبَ الرجا والنَّاسُ قد رَقَدُوا *** وَبِتُّ أَشكُو إلى مَوْلايَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ: يَا أَمَلِي فِي كلِّ نائبــةٍ *** ومَن عليه لكشفِ الضرِّ أَعتَمِدُ
أَشكُو إليكَ أمورًا أنتَ تَعلَمُهـا *** مَا لِي عَلَى حملِها صبرٌ ولا جَلَدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بالذلِّ مبتهـلاً *** إليكَ يَا خيرَ مَن مُدَّت إليه يدُ
فَلا تردَّنَّها يا ربُّ خائبــةً *** فبحرُ جُودِكَ يَروِي كلَّ مَن يَرِدُ[5]

ومع شكواك لربك، فلا بدّ لك من التحلِّي بالصبر الجميل، وهو الذي لا شكوى معه إلى الخلق، ولا تضجر ولا تسخط، وإنما تشكو إلى الخالق الرحيم الرحمن القادر، لا إلى المخلوق الضعيف العاجز، الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا.

يقول أحد الشعراء الحكماء:

وَإِذَا عَرَاكَ بليةٌ فاصبرْ لَهَـا *** صَبْرَ الكريمِ فَإِنَّه بكَ أَعلــمُ
وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ[6]

وهذا عمر يقول: \"ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تُحزنَ صديقك، وتشمِّت عدوك\"[7].
وقال الأحنف:\"شكوتُ إلى عمّي في بطني فنهرني، ثم قال: يا ابن أخي لا تشكُ إلى أحدٍ ما نزل بك، فإنما الناس رجلان، صديق تسوءه بهذه الشكوى وتؤلمه، وعدو تسره\"[8].

قد يَفْقِدُ المرءُ بينَ الناسِ عزَّتَـهُ *** إذا شَكَا أَمْرَه أو سبَّ مِحْنَتَهُ
فَكُنْ كَلَيْثِ الشَّرَى مَا بَاع هَيْبَتَهُ *** وَلَا تشكَّ إلى خلقٍ فَتَشْمتَـهَ

والشكوى لغير الله حمق وجهالة، قال ابن القيم: \"الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عَرَف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتَه وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدتَ على أن شكوتَ مَن يرحمك.

وفي ذلك قيل:

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ.

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس\"[9].
وقال شيخ الإسلام: \"وكل مَن علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو أن يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك\"[10].

إن الوقوفَ على الأبوابِ حرمانُ *** والعجزُ أن يرجوَ الإنسانَ إنسانُ
متَى تؤمِّل مخلوقاً وتقصــدُه *** إن كان عندكَ بالرحمنِ إيمـانُ
ثِقْ بالذي هو يُعطِي ذَا ويَمنَعُ ذا *** في كلِّ يومٍ له في خلقِه شـانُ[11]

ومع هذا كله فلا مانع من أن تبثَّ شكواك، وتبوح بحاجتك إلى أصحاب المروءات، وذلك في الأمور الدنيوية المقدور عليها.

ولا بُدَّ من شَكْوَى إلى ذي مُروءَة *** يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّع[12]!.

مع حسنِ توكلك، وقوة اعتمادك على خالقك ومولاك!
وأحيانًا قد لا يجد الإنسان حلاًّ إلّا أن يبوحَ بشكواه إلى أهل الخبرة والاختصاص.

قال أحد الشعراء:

شكوتُ وما الشَّكْوَى لنفسيَ عادة *** ولكن تفيض النفسُ عند امتلائها[13].

وفقنا الله وإياك لطاعته، وأبعدنا الله وإياك عن معصيته.

---

[1] رواه الطبراني في المعجم الكبير (13/73)، وحسنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (7/267).
[2] انظر: المعجم الكبير للطبراني (5/259)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (1/507).
[3] صفة الصفوة لابن الجوزي (2/39).
[4] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛ ابن القيم، (36).
[5] موارد الظمآن؛ عبد العزيز السلمان (2/91- 92).
[6] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب؛ السفَّاريني (1/456).
[7] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء؛ الأصفهاني (524).
[8] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ ابن خلكان (2/505).
[9] الفوائد، ابن القيم، ص (87).
[10] العبودية، ابن تيمية، ص (87).

[11] الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح (3/280).

[12] نظم العقيان في أعيان الأعيان، السيوطي، (67).

[13] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج النهرواني، ص (555).

صيد الفوائد

المصادر: